فسحة قصيرة

الخجل من الكتابة

منهل السرّاج*

لا أستطيع الكتابة. أشكو من ضعفٍ أثناء التعبير، ومن تردّدٍ في العبارة، ومن وجلٍ من الفكرة، ومن تخوّفٍ في التأويل لديّ الأمنية والحرص، لكنّ الكاتبة الملهوفة ليست موَكّلة إلا عن نحولها.

القهر نصالٌ من النار، بشأن ما يقع على البنات والأولاد، والشباب المندفعين، والرجال الهادرين القهر نصالٌ من غرور المهاجمين المتكالبين، وافتقاد أيِّ معنًى لغاياتهم وسبلهم، وأيّ معنى لوجودهم لكنّ نصال القهر لا تصنع كتابةً، بل توهن العزيمة، إذ لا أملك أن أكتّف أذرعَ أحد، كما يخطر في بالي حين أراهم في الصورة يَهْجمون على الضحيّة.

يقع الترويعُ على مَنْ فكّرتُ فيهم طوال أوقات الكتابة، المندفعين، الأنقياء السريرة، أصحاب الرقّة، ممّن حرصتُ عليهم وكانوا أبطالي بيني وبين أوراقي. أيُّ حيلةٍ توقظهم اليوم من مضيّهم في استشهادهم، من انغماسهم واستسلامهم؟ لا أستطيع أن أوهم أحدًا منهم بالنهوض.

إذنْ، عملُ الكتابة هباء. والإيمانُ بالحقّ في لغتنا العربيّة لايفعل شيئًا. وإخلاصُ المرء ومضيُّه في الإيمان لا يفعلان أيّ شيء. فالكاتبة لا يَسمع منها الربُّ، ولا تراها الملائكةُ، ولا يلتقيها المؤمنون. كم كانت متبخترةً بإيماناتها ويقينها بالحقّ الذي لا بدّ - كما كانت تعتقد - أنْ يعلو!

العبء الأكبر على الإنسان هو أن يكون كاتبًا باللغة العربيّة، وألاّ يتقن شيئًا غير الكتابة. الأبرياء يستصرخون، والكاتبُ يهرب... ليتناول ورقةً ويسطّر! الفجائع كثيفة: تتكالب على الشعور، وتُعجز النفسَ أمام الضمير، وتشلّ ذراعَ الكتابة.

والكاتب طفلٌ في موهبته، يحتاج تصفيقًا ودعمًا لكي يعبّر. والتصفيق في هذا الظرف عيبٌ وعار والحقّ الأكمل الذي ينشده لأهل بلده هو أن انهضوا من دون أن تموتوا، كما تنهض بقيّة أهل الأرض - وهو نداءٌ يستدعي تهكّمَ أولي النفوذ

ويهتف في العمق صوتٌ، يروْنه ساذجًا، يهتف: «لماذا لا تفهمون؟». صوتٌ مكتومٌ ولا جدوى منه، يضرّ صاحبه، حين لا يصل الصوتُ - إنْ كان لهؤلاء أمّهات، إنْ كان لذويهم ومن يعتنون بهم ويطعمونهم، إنْ كان لديهم أيُّ معنًى، إنْ كانت ثمة في زاويةٍ ما من نفوسهم خليّةٌ يمكن أن تستيقظ!

أما الجهة المعافاة، النشطة، التي تَعْلم ولا تَفْعل، فليس لديها غيرُ السياسة والإحصاء سياسة السياسيين، وإحصاء الحياديين، حيث الضحايا بالأرقام.

الناس على عجلةٍ من أمرهم. يحْصون قتلاهم ويهبّون.

لم يحص أحدٌ ما يلامس عمقَ الفجيعة وامتدادَها لم يضجّ أحدٌ تضحيةَ الشهيد، ولم تتمكّن الكاتبةُ من أن تضحّي أو ربما غصبًا، لا بإرادتها، تضحّيَ. مغتصَبون نحن، حتى في تضحياتنا

ماذا لو عدتُ إلى بلدي، عشتُ في بيت الضحيّة، مع أمّهات البنات المخطوفات، الخائفات، الغاضبات؟ آخذ بيد الأم، نبحث عن ابنتها، ونعثر عليها، ونرجع إلى البيت نساءً معزّزاتٍ مكرّمات؟!

صبيّة صغيرة، مازالت عقدةُ الساتان تزيّن شعرَها، فيما يدٌ تقلّب جسدَها المثقّبَ بالرصاص كما تقلّب فروجًا! المشاهد تغرز. وتقول أختي بحسم: لا فائدة من رجوعك إلى سوريا الآن.

قتيلٌ رحل بروحه، وترك لنا الإثم نحن شهودٌ في عالم لا يجيد إلا سياسة النسيان وقذف الآلام إلى الزمن، والزمنُ غافل. والضحايا في السياسة مجردُ ورقاتٍ وأرقام.

ويجرّون الكاتبة جرّاً، ويسحلونها سحلاً، كي تعلن موقفًا

والكاتبة الآن لا تهمّها الهيبةُ ولا المواقف. هي تحتقر الهيبةَ والمواقف يأكلها همُّ الأمّهات والآباء، وعيشُهم من دون حبيبهم. أولاد يُتّموا، وهُدم غدُهم، وأصبحوا مشاريعَ أوراقٍ ومشاهدَ وأرقام، سوف يخدمون السياسةَ والساسةَ غدًا، وسيقع عليهم الإحصاءُ يومًا، كما حدث وفعل أهلُهم، وكما وقع على أهلهم. هكذا تُسهّل طرقُ السياسة والمخطّطات أترون الحقّ؟ هذه هي الأبراج التي ترتفع حين يرتفع عددُ الضحايا في منطقتنا، فقط في منطقتنا!

لن نسامح عن الضحيّة، وإنْ سامح العالمُ عنها لدينا الحقُّ في إبراز حقوقها وإننا مسؤولون، ولن ننسى!

❖ ❖ ❖

يمكنكم الآن أن تتضاحكوا من وعيد الكاتبة. فالكاتبة لا تملك محكمةً، ولا تملك أن تحاكم أحدًا. وربما لن يمتدّ العمرُ بها لكي تتشفّى بكتابة رواية؛ فالأدب في نبله الحقيقيّ يلزمه عمرٌ مديدٌ قبل أن ترقى لغتُه إلى ألم بُنيّةٍ خُطفتْ الآن وتستنجد، ولا يوجد مَنْ يسمع استغاثتَها!

ليست لديّ مهاراتٌ كي أبقى متماسكةً وأدّعي الأمل، حين اليأس الشديد.

❖ ❖ ❖

سُئلتُ لماذا لا أكتب؟ وكان هذا بعضًا قليلاً من أسى الكاتبة أخجل من الكتابة. وأخجل حين أستطيعُ التعبير.

ستوكهولم

* - كاتبة سورية مقيمة في ستوكهولم